الأخوات الأربع

١ ـ البيت والابوان
٢ ـ ابو البنات
٣ ـ الشقيقان
٤ ـ حب النبى لبناته
٥ـ الشقيقات الأربع فى بيتهن الاول

البيت والابوان

فى جوار الحرم الاقدس ، حيث دور قريش حافة بالمسجد الحرام مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الاسنى ، قامت الدار التاريخية التى كتب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمى ، وان تستقبله بعدخمسة عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ، بعد أن تلقى رسالة السماء

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فينزل اليها بعدد من الدرجات ، توصل الى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو قدم ، وطولها عشرةامتار، اما عرضها فاربعة

وعلى اليمين باب صغير ، يصعد اليه بدرجتين ، يؤدى الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة ابواب : يفتح اولها ـ من الجانب الايسر ـ على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة امتار ، كانت للنبى المختار محرابا ومعبدا ، ويؤدى الباب الامامى الى بهو متسع طوله ستة امتار وعرضه اربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، اما الباب الثالث فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح فى غرفة مستطيلة ، طولها سبعة امتار وعرضها اربعة ، وقدجعلت لبنات محمد . وعلى طول هذا المسكن من ناحية الشمال

فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا فى سبعة أمتار ، ويرتفع عن الارض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة « خديجة » تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه الساحةمضيفةلاستقبال الضيوف

هذه هى الدار التى استقبلت محمدا ـ أولماا استقبلته ـ يوم اختارته السيدة خديجة ليخرج فى مالها الى الشام متاجرا ، ثم استقبلته عائدا من رحلته ، حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش ، واخذها منه بهاء طلعته وجلال شخصيته ، حتى اذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل ـ ١٥ قبل المبعث ـ دقت الطبول فى الدار ، احتفالا بزواج زين شباب قريش عفة وامانة وخلقا ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى ، سيدة نساء قريش واعظمهن شرفا واكثرهن مالا

وقضت مكة اياما وليالى ، ولا حديث لها الا عن ذاك الزواج المشهود . ولم تكن بهجة الحفل وحدها هى التى استأثرت بحديث القوم ، وانما اذهلتهم المفاجأةغيرالمنتظرة، فما داربخلد احدهم انترغب «السيدة خديجة » فى الزواج من جديد بعد الذى عرف من زهدها فى الرجال وانصرافها عنهم وردها سادة قريش واحدا بعد الآخر ردا موئسا ، ولا خطر ببالهم ان يكون « محمد » ـ ابن الخامسة والعشرين ـ هو الزوج المختار للارملة الثرية ، ذات الاعوام الاربعين

واذا كان رجال من قريش قد نقموا يومئذ على العقيلة الغنية ، ان تؤثر عليهم شابا غير ذى مال ، فلعل بنات

هاشم قد تحدثن طويلا عن شبابه الغض ، تستأثر به سيدة تزوجت من قبل مرتين ، وتصرفه عن العذارى الهاشميات ، ذوات الصبا الندى والحسن النضير

على أن أحدا من هؤلاء أو اولئك لم يزعم — صادقا — ان خديجة فى عزتها وشرفها وثرائها ، غير كفء لمحمد ؛ أو أن محمدا فى عراقة نسبه وطيب عنصره وجلال شخصيته ، غير كفء لخديجة ، وانما اقصى ما قيل عنهما ، انها كهلة فى الاربعين ، وانه شاب فقير فى الخامسة والعشرين

وحين ذهب اثر المفاجأة ولم يعد يجدى حديث عن فارق السن والثروة بينهما ، كفت اندية قريش ومسامر مكة عن ذلك الحديث العقيم ، وبدأت تستعيد ذكريات ماضية اثارتها المناسبة ، وتنفض عنها غبار السنين

وربما كان أول ماتذاكره القوم يومئذ ، قصة ابنة عم لخديجة ، ثرية ناضجة ، اختارت هى الاخرى فتى هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين عاما ، وان كان لم يستجب لها

تلك هى « رقية بنت نوفل » الاسدية ، اخت ورقة : لمحت عبد الله بن عبد المطلب اثر انصرافه من الكعبة بعد أن افتدى من الذبح وفاء لنذر ابيه ، فشامت عليه مخايل مجد مرجو ، وعرضت عليه نفسها ، وله مثل الابل المئة التى نحرت عنه ، فاعتذر فى تلطف ، ومضى فتزوج آمنة بنت وهب ، فتاة آل زهرة

وهذه هى خديجة بنت عم رقية ، تتقدم بكل جاهها

وثرائها وعزتها ، الى ابن عبد الله ؛ تعرض عليه ان يتزوجها

وعاش « ورقة بن نوفل » ليسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه ، ويشهد حفل عرسهما ؛ بعد ان شهد بالامس البعيد انصراف عبد الله ابى محمد ، عن اخته رقية بنت نوفل

وحين كانت مسامر مكة فى شغل بالحديث عن الزوجين السعيدين ، كان « ورقة » يستعيد ما ذكرته له «خديجة» من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد فى مالها الى الشام ، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما ، من كلام اخته رقية عن النور الذى راته فى وجه عبد الله ، فيكاد «ورقة» يلمح فى صهره الشاب ، ملامح النبى المنتظر الذى شاع ان زمانه قد اظل ، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول :

لججت وكنت فى الذكرى لجـــوجا
لهم طالمـا بعث النشيجـــــا

ووصف من « خديجة » بعد وصف

فقد طال انتظارى يا خـــــديجا !

وبدات حياة زوجية هانئة يظللها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة ، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر ، ثم لم يكد يمضى على زواجهما عام وبعض عام ، حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة ، فخفق قلب « محمد » فرحا وغبطة ، اذ يوشك للمرة الاولى ان يغدو ابا ! واثارت الابوة المرتقبة

اعمق مشاعره ، وارق انفعالاته ، وهو مقبل على التجربة العظمى التى لا يكمل وجود الرجل بغيرها ، فعمـا قريب يشهد فلذة منه تخرج الى النور وتستقبل الحياة ، لتكون امتدادا لحياته ؛ وعما قريب يرى صورته ممثلة فى كيان صغير لطيف ، تتم به هذه السعادة التى عرفها منذ عرف خديجة

وذكر امه التى رحلت عن الدنيا وهو صبى فى السادسة ، وذكر اباه الذى ثوى فى « يثرب » وولده ما يزال جنينا فى رحم امه آمنة بنت وهب ، فتمنى لو انهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملأ اعينهما مر مولوده المنتظر

ولم ينس جده الشيخ عبد المطلب الذى كان له من بعد ابيه ابا ، فرق قلبه وهو يستعرض ذكرياته ، وتندت عيناه شجوا ورحمة ، ثم آب من تأملاته وراح يرقب زوجتـه الحبيبة وهى تروح وتغدو فى الدار بخطوات اثقلها الحمل الغالى ، ووجهها المشرق يتالق بسنا السعادة والحنان

لم تكن هذه تجربتها الاولى فى الامومة ، فقد ولدت البنين والبنات من زوجيها السابقين : عتيق بن عائذ المخزومى ، وابى هالة التميمى ، فهل تراها كفت عن التشوق للأبناء ووجدت فى بنيها : هند ، وهالة ، وعبد مناف ، ما يرضى امومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء ؟

معاذ الحب ان تقنع امومة خديجة بأبنائها الاولين ، فلا يشوقها ان يكون لها ولد من زوجها الحبيب : محمد بن عبد الله !

ومعاذ الفطرة السوية للأنوثة الناضجة المجربة ، ان تزهد

خديجة فى الابناء ، فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها، ويثبت أنها ما تزال فتية منجبة !

وكيف يظن بها الزهد فى الولد ، وهى ترى زوجها العزيز فى ذروة فتوته ونضرة شبابه وقد بدات هى العقدالخامس من عمرها ، فى بيئة تتزوج بناتها دون العاشرة ، وتكتهل نساؤها دون الاربعين ؟

كلا ! فما كانت امراة فى قريش اشد لهفة على الحمل ، من هذه السيدة التى جربت الامومة من قبل وكان لها بنون وبنات . وما كانت هى نفسها ، فى زواجها الاول او الثانى، بأشوق منها الى الولد فى زواجها هذا الثالث والاخير ، اذ كانت فى المرتين الأوليين ، ابعد من ان تتهم بالجفاف او يظن بها اليأس،أما فى هذه المرة فالامل فى الانجاب أبعد،والاتهام باليأس قريب

وما ارتاب فى ان المخاوف ساورتها فى مطلع حياتهـــا الزوجية الجديدة ، واشفقت ايما اشفاق من ان تمسك رحمها فلا تجود بعقب لهذا الحبيب الذى لم يتزوج سواها من قبل ، ولا عرف مثلها الولد

ولم يرعها ان تتمثل عجائز قريش وهن يتربصن بها الايام ليملأن اشداقهن بالحديث عن كهولتها المجدبة وحيويتهـــا الناضبة ، ولا اهمها ان تتصور سيدات بنى هاشم وهن يتأسفن على زين شباب الاسرة فى حرمانه من الذرية ، بقدر ما اهمها وراعها ان تكون هى السبب فى هذا الحرمان، وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجها بعيدا عنها فى بعض شئون العمل او التجارة ، فيذود النوم عن عينيها ويؤرق لياليها ، ولا تجد ما يسرى عنها الا ان تلوذ

بالسماء ضارعة الى الله ان يتم عليها نعمته ، ويهبها ولدا من احب الازواج . وما تزال كذلك حتى يئوب اليها زوجها العزيز ، فتشعر بالحيوية تسرى اليها منه ، وتحس بنفحة عطرة من شبابه تنسيها هواجسها التى شغلت بالها ، وترد اليهـا ثقتها فى نفسها ، واطمئنانهـا الى حيويتها المذخورة الخصبة

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح أعطافها فأقبلت على زوجها مشوقة هائمة تزف اليه البشرى ، ثم بعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد فى دور بنى هاشم وينشرونه فى احياء قريش ، واغدقت عطاءها على ذوى الحاجة،وكأنما ارادت ان تشاركها « مكة » كلها فى فرحتها ، فلا يبقى من اهلها جائع ولا محروم

أبو البنات

واستمرأت متاعب الحمل واستخفت ثقله ، فظلت طوال اشهره التسعة ، تعد دنياها لاستقبال الوليد ، وتختار له المرضع قبل أن يولد (الاصابة ٦١/٨)

حتى اذا آن أوان الوضع ، واجهت التجـــربة ــ التى تعرف شدتها وقسوة آلامها ــ فى شجاعة فذة واحتمال نادر ، على حين وقف الزوج فى محرابه ، ينتظر اللحظـة الحاسمة بلهفة مشوبة بشىء من القلق ، لم يلبث ان تبدد حين انبعثت من مخدع الوالدة ، صيحة رقيقة واهنة ، معلنة قدوم الوليد السعيد

وتبعتها صيحات ابتهاج عالية ، سرت مع الهـواء الى الحرم ، وبلغت اسماع الحى القرشى ، فعرف القوم ان خديجة بنت خويلد ، وضعت مولودها الاول ، لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب

ومضت فترة من الوقت والاب الكريم يرنو الى مخدع زوجته مستثار الشوق الى رؤية الفلذة الحية من صلبه ، ثم فتح باب المخدع على القابلة « سلمى : مولاة صفية بنت عبد المطلب » تحمل الى الاب طفلته الاولى ، فتلقاها بين ذراعيه فرحا ، ودنا بها من زوجته الراقـــدة فى فراش الوضع ، مسترخية الاعضاء من فرط الاجهـــاد ، بادية الغبطة والهناءة مع ذاك

وتلاقت اعينهما على وجه الوليدة الحلوة ، وخفق لها قلباهما وهما يريان فيها صورتهما معا

وسماها ابوها « زينب »

ونحرت الذبائح احتفالا بمولدها !

▭

ترى هل مر ببالهما فى تلك اللحظة خاطر مشترك ، هو ان الله رزقهما بأنثى ، وليس الذكر كالانثى ؟

وهل ود كلاهما لو أن الوليدة كانت ولدا ؟

ربما ، فما من شيء كهذا بمستغرب من زوجين مثلهما ، فى فطرتهما السوية ، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه بيئتهما من حب البنين . لكن ذلك الخاطر لم يكن بالذى يعكر عليهما صفو الفرحة بسلامة الوضع ، فقد عظمت حرارة ترحيبهما بمولد طفلتهما الاولى . وتشبثت الأم بوليدتها اياما قبل ان تدفع بها الى المرضع المختارة ، على المألوف من عادة اشراف مكة

وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعتها ، حتى عادت اشبه بزهرة غضة باسمة ، أضفت على البيت مزيدا من السنا ، وعطرته بأريجها الزكى

▭

ولم يطل بها المقام فى البيت ، حتى استقبل اختها «رقية» فاتصل بها الامل فى نماء الاسرة ، واعتدها الابوان الكريمان بشرى خير وبركة

ثم جاءت من بعدهما « ام كلثوم » وكان الظن ان يضيق الأبوان بمولد انثى ثالثة ، فى بيئة مفتونة بالبنين ، ولكنهما

ادركا ان الامر فى هذا لله وحده ، وكرها ان يجحدا نعمته عليهما فيبوءا بالخسران ، ومن ثم اقبلا على طفلتهماالثالثة، شاكرين لله ما اعطى ، طامعين مع هذا فى مزيد من كرمه

وأقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة

وصادف مولدها ، حادثا جليلا فى تاريخ الاب ، وتاريخ مكة الدينى اجمع

فقد حدث قبيل ذلك بأمد قصير ، أن اجمعت قريش أمرها على أن تعيد بناء الكعبة ، بعد أن طال ترددها فىذلك، تهيبا واشفاقا

وكانت الكعبة قد اضرت بها شرارة طارت من مجمرة احدى النسوة ، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها ، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذى بأعلى مكة ، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش أمام حرمها الاقدس مكتوفة اليـــدين ، لا تدرى ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذى جعل من «مكة» محج العرب جميعا ومهوى أفئدتهم ، وانزل قريشا بحكم جـوارها للحرم ، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها

وبلغها اذ ذاك أن البحر رمى بسفينة رومية جنحتالى جدة ، فسعى اليها رجال من قريش ، وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل مصرى نجار بناء

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ماتزال تتهيب أن تهدم بناءها الاول ، حتى قام « الوليدبنالمغيرةالمخزومى»

فاخـذ المعول وقال : « اللهم لم نزغ ! اللهم انا لا نريد الا الخير ! » ثم اهوى بالمعول والقوم ينظرون اليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى انفسهم جميعا . فلما لم يصبه سوء ، ابوا مع ذلك الا ان يتربصـــوا ليلتهم تـلك ، ليروا ماذا يكون . واصبح « الوليد » غاديا على عمله لم يمسسه شر ، فهدم وهدم الناس معه

وتنافست القبائل فى جمع الحجارة لبناء الكعبة ،وشارك «محمد» فى ذلك العمل المجيـــد ، فكان ينقل الحجر مع الناقلين ، حتى اذا تم البناء ، اختصمت قبائل قريش فى الحجر الاسود ، كل قبيلة تريد ان تستأثر بشرف رفعه الى موضعه . واشتدت الخصومة حتى انذرت بحـرب ، ومكثت قريش على ذلك اربع ليال او خمسا ، ونذر الخطر تزداد ، حتى قام فيهم « ابو امية بن المغيرة المخزومى » ـ وهو يومئذ اسن قريش كلها ـ فقال :

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، اول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه »

فقبلوا ، وتعلقت عيونهم جميعا بالبـاب تنتظر الحكم المجهول ، وانهم لكذلك ، اذ اقبل رجل شاب ، تام الفتوة ، متزن الخطا من غير تكلف ، رزين من غير فتور ، بهى الطلعة مع جد ووقار ، فهتفوا جميعا لما ان رأوه :

« هذا الامين ، هذا محمد بن عبد الله الهاشمى ، رضينا بحكمه »

واقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف،فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة فى الثـــوب وقال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا »
ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به مكانه ، وضعه محمد بيده ودعم بناءه

وكانت سنه يومئذ ، خمسا وثلاثين سنة ، على ما روى ابن اسحاق (١/٢٠٤)

وآب « محمد » الى بيته ، حيث ترك زوجته فى الغداة على وشك الوضع ، وسعى الى الكعبة داعيا ، فكان أول ما استقبله عند عودته ، بشرى مولد ابنته الرابعة « فاطمة »

واقترنت هذه البشرى ، ببشرى نجاة قريش على يد الأمين ، مما كان يتهددها من حرب ودمار

ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشى :

تشاجرت الاحياء فى فصل خطة
جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها ، بالبغض بعد مودة
وأوقد نارا بينهم شر موقد
فلما راينا الأمر قد جد جده
ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا : العدل اول طالع
يجىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الامين محمد
فقلنا : رضينا بالامين محمد

واقبل « محمد » على زوجته مهنئا اياها بسلامة الوضع ، ثم تلقى طفلته الرابعة يبارك مولدها فى ذلك اليوم الاغر ،

وكانما رأى فى ذلك الاتفاق ، آيةمن الله،تحببالليه رزقه، وتصرف سمعه عما كان يقال حينـــذاك عن ابوته لاناث اربع !

وتطلع الى السماء شاكرا حامدا ، راضيا بما يأتيه من عند الله ، مستشار الرحمـــة والحنان على تلك المخلوقات اللطيفة البريئة ، يتلقاها القـوم كارهين ، وما جاءت الى الدنيا مختارة ، ولا هى بمسئولة عن تخلف البنين !

ثم رنا الى زوجتـــه فى عطف وتأثر ، يريد أن يبث فى نفسها الطمأنينة والرضا ، وان يهون عليها أمرا لايد لها ولا لأحد فيه ، وانما تلك ارادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ، ولا معقب على ارادته

لكن « خديجة » لم تكن فى حاجة الى مواساة ، فانها ما كادت تملأ عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها قلبها وقد رأت فيها صورة طبق الاصل من ابيها !

فادركت أن الله حبا هذه الوليدة بعناية منه ، حينبراها على مثال « محمد » العزيز ، فكان شبهها الغريب به ، كافيا وحده لأن يحميها من سوء الاستقبال ، ويفجر لها أسخى ينابيع الحب والاعزاز ، فى قلب هـــذه الام التى اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجة محمد ، وأرضاها كل الرضا ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد أن نفضت يديها من الرجال ، واوصدت قلبها على يأس

الشقيقان

وبقى للأبوين ـ كى تتم سعادتهما ـ مطلب واحد ، أن يهبهما الله مولودا ذكرا ، بعد أن من عليهما باناث أربع

وبدا الامل بعيدا ، اذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت بعد مولد فاطمة سن الخمسين ، لكنها مع ذاك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من الولد رغم السن العالية ، ولااخلفتها عادتها الشهرية المؤذنة بصلاحيتها للحمل ، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء فى فضل الله

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامهما « القاسم » ثم تلاه « عبد الله » فتضاعفت الفرحة بمولده ، حين ظن ان لا رجاء

لكن الله لم يشأ لهما أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، احدهما بعد الآخر

أما متى ولدا ، وكيف وانى ماتا ، فالمؤرخون وكتاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد فى ذلك الامر مع ماله من اهمية قصوى فى حياة الاسرة المحمدية والتاريخ الاسلامى ، وعلى قرب عهد ابنى محمد ، بمبعث الاب الكريم

واعجب من هذا ، انهم اختلفوا فى عدد الذكور من ابناء محمد وخديجة ، وهل كانا اثنين ، او كانوا ثلاثة ، او اربعا

فالذى فى السيرة (١/٢٠٢) قول ابن اسحاق : « اكبر بنيه : القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر ... فأما القاسم

والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الاسلام فأسلمن وهاجرن معه »

وفى (الروض الانف : ١/١٢٣) رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمى بالطاهر والطيب لانه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به اولا عبد الله

« وبلغ القاسم سن المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت عند ما مات »

وفيه كذلك ، فى الموضع نفسه ، أن خديجة رضى الله عنها : « دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد المبعث ، وهى تبكى ، فقالت : يارسول الله ، درت لبينة القاسم ـ تصغير لبنة ، تعنى بها بقايا اللبن فى ثديها ـ فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه لهون على . فقال الاب الرسول : ان له مرضعا فى الجنة تستكمل رضاعته . قالت : لو أعلم ذلك لهون على . فقال النبى : ان شئت اسمعتك صوته فى الجنة . فأجابت : بل اصدق الله ورسوله »

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا فى الاسلام كاخيه عبد الله ، الذى لقب بالطاهر والطيب لمولده فى الاسلام على ما نقل عن « الزبير » ابن أخى السيدة خديجة

وفى الاصابة ، فى ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين :

« فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ، سمى بذلك لانها ولدته فى الاسلام ـ ٨/٦١ »

وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيما يختص بعدد أبناء محمد ، فقد التبس اللقب بالاسم ، وجعل الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، او مع القاسم

وعبد الله فهم أربعة ، وما الطيب والطاهر ـ على الارجح ـ سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبى من خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المختار عند جمهور المسلمين

أما فيما يتصل بوقت ولادتهما ووفاتهما، فالتوفيق فيهما أشق وأعسر ، فقد انفرد « ابن اسحاق » بالرواية عن موتهما فى الجاهلية ، على حين ذكر غيره أن القاسم ولد فى الجاهلية ومات فى الاسلام ، واما عبد الله فولد ومات فى الاسلام ، وكان من الممكن ترجيح رواية ابن اسحاق ، اذ هو شيخ كتاب السيرة ، وكتابه أقدم مرجع بين أيدينا ، لكنما يحول دون الاخذ بروايته فى طمأنينة ، انه انفرد بها دون اسناد ، وأن الذين خالفوه ، ذكروا فى سندهم «الزبير ابن العوام » وهو ابن أخت السيدة خديجة ، وأحد العشرة السابقين الى الاسلام

وايا ما كان الامر، فالذى لاريب فيه أن البيت المحمدى لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين قبيل المبعث أو فى مستهله ، ولعلنا لو حاولنا أن نلتمس دليلا يؤيد هذا ، لوجدناه فى « سورة الكوثر » حيث يقول الله تعالى لنبيه الكريم :

« انا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . أن شانئك هو الابتر »

وسورة الكوثر ، مكية مبكرة ، فهى الخامسة عشرة فى ترتيب تاريخ النزول ، بين السور المكية التى بلغت عدتها تسعا وثمانين سورة . والمتفق عليه أن الكوثر نزلت فى « العاص بن وائل السهمى » ، أحد اشراف مكة الذين ساروا الى ابى طالب يسألونه ان يرد ابن أخيه عن دعوته

وقد نقل « ابن اسحاق » فى (السيرة ٢/٣٨) أن

العاص اشترى سيوفا من خباب بن الارت ، وكان قينـــا بمكة يعمل السيوف ، فجاء خباب ـ وقد اسلم ـ يتقاضى العاص ثمنها فاستمهله الى يوم القيامة قائلا فى سخرية وقد غره ما انعم الله عليه به من مال وولد :

« اليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه ان فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة ؟ فأنظرنى يا خباب الى ذلك اليوم فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكون أنت وصاحبك آثر عند الله منى »

فأنزل الله تعالى فيه :

« افرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا » الى قوله تعالى : « ونرثه مايقول ويأتينا فردا »

وكان العاص ـ فيما نقل ابن اسحاق كذلك ـ « اذا ذكر الرسول قال لقومه : دعوه ، فانما هو رجل ابترلاعقب له ، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم من ذكره » فأنزل الله فى ذلك سورة الكوثر (السيرة ٢/٣٤)

ويقول « الزمخشرى » فى تفسير آية الكوثر : « ان من أبغضك هو الابتر لا أنت ، لان كل من يولد من المؤمنين الى يوم القيامة من المؤمنين فهم اولادك واعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر ؛ يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك ، فمثلك لا يقال له أبتر ، وانما الابتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة ، وان ذكر ذكر باللعن ـ الكشاف ٤/٢٣٧ »

وما نرتاب فى ان ذلك الشانىء ، لم يدر بخلده يوم عير محمدا ، ان ذكر ابن عبد الله سوف يبقى خالدا عاطرا ماعبد الله فى الارض

لقد كان اقصى ما يتصوره هو والمشركون من قريش ، ان يستأثر حفيد عبد المطلب الهاشمى دونهم بالزعامة فى مكة ، وربما امتد سلطانه الى القبائل القريبةالمجاورة فيبقى له الأمر ما عاش ، ثم ينقطع ذكره بموته ، أما أن يمتد سلطانه من اقصى المشرق الى اقصى المغرب ، ويخلد ذكره على مر العصور والآباد ، فذلك مالم يكونوا يتصورونه وقد عاشوا حتى ذلك الحين محصورين فى جزيرتهم لا يكادون يخرجون عنها الا رحلا أو متاجرين

وما كانت قرشية « محمد » الصميمة الخالصة ، لتهون عليهم انتقال السلطان اليه ، فان المنافسة على الشرف بين بيوت قريش كانت على أشدها

حدثوا أن الاخنس بن شريق الثقفى اتى ابا الحكم بن هشام بن المغيرة فسأله : يا أبا الحكم ، ما رايك فيما سمعت من محمد ؟ فأجاب :

« ماذا سمعت ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ـ يعنى الديات ـ واعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! فمتى ندرك مثل هذه ؟! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » السيرة ٣٣٨/١

على أن النزاع بين بنى عبد مناف انفسهم لم يكن الا شبيها بهذا او امر منه ، فقد كان هناك البيت العبشمى والبيت الهاشمى ، يتنازعان ما استرده ابواهما « عبد شمس وهاشم ابنا عبد مناف » من ميراث جدهم «قصى» الذى كان قد وصى بما بيديه من مناصب الشرف لولده « عبد الدار » كى يلحقه بأخيه « عبد مناف » الذى شرف

فى زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وقد ظهر محمد بدعوته السماوية ، وفى بنى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة، وفى بنى عبد شمس بن عبد مناف اللواء ، ونذكر هنا مامر بنا من خبر قيام قريش فى وجه « عبد المطلب بن هاشم » حين هم بحفر بئر زمزم ، كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف، فهل تراهم تاركين حفيد عبد المطلب يظهر بدعوته نبيا ورسولا من السماء ؟

الى ذاك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش ، فلا عجب أن بات القوم يتعللون بانقضاء ذكر محمد بموته ، ويقول قائلهم مهونا عليهم الامر :

« دعوه فانما هو أبتر ! »

أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يعلم أن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومخلد دعوته ، دون حاجة الى ولد من صلب الرسول المختار ، يرثها وينهض بها من بعده !

ولست بالقائلة مع هذا كله أن محمدا تجرد من حب البنين ، فما كانت بشريته ، صلى الله عليه وسلم ، لتسمح له بذلك ، ولا كانت فطرته النقية السوية بالتى تجمد فيها أسمى المشاعر الانسانية وتنزع منها غريزة كهذه يرتهن بها حفظ النوع وعمران الكون

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : أولهما على بن أبى طالب ، وكانت قريش قد أصابتها أزمة شديدة وابو طالب ذو عيال ، فقال محمد لعمه العباس اغنى بنى عبد المطلب :

« ان أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الازمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه »

ووسع محمد لابن عمه على مكانا فى بيته ، وفى قلبه ، ثم زوجه ، بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن اليه

اما الثانى فزيد بن حارثة الكلبى ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائى ، خرجت به صبيا لتزيره أهلها فى طيىء فأصابته خيل من بنى القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد ثم قدمه الى عمته خديجة التى وهبته لزوجها قبل المبعث ، فأعتقه وتبناه ، وأذاع فى الملأ من قريش أنه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى زيد بن محمد ، حتى جاء أمر الاسلام : « ادعوهم لآبائهم » فدعى زيد بن حارثة ، وظل مع ذلك أثيرا عند الرسول مقربا منه عزيزا عليه !

وقد ظل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أخريات أعوامه يشتاق الولد ويلتمس الوسيلة اليه ، حتى اذا وهبه الله على الكبر غلاما ، امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناءة وفرحا ، لولا أن الله لم يمهل « ابراهيم » غير ثمانية عشر شهرا ثم قبضه اليه ، فحزن الاب الثاكل لفقده أشد الحزن ولم يكتم ألمه ، ولا ملك دموعه ، وان ظل على الحزن مستسلما لقضاء الله الذى شاء لحكمة سامية الا يكون لمحمد فى تلك البيئة المفتونة بالبنين ولد ذكر ، وان دان برسالته ملايين البشر فى مشارق الارض ومغاربها

حب النبى لبناته

آن لنا أن نستأنف الحديث عن بنات محمد ، اللواتى كتب لهن أن يعشن دون اخوتهن من البنين ، وأن يتزوجن جميعا فى حياة أبيهن العظيم ، كما كتب عليه أن يثكل ثلاثا منهن فى عز شبابهن ، ولا يبقى له غير فاطمة الزهراء

ولا نعلم أن احدا ممن عاصروا محمدا وحاربوه نبيا رسولا ، قد جحد حب محمد لبناته جميعا ؛ أما أعداء الاسلام المحدثون من المستشرقين ، فيأبون ان يصدقوا انه احب بناته ذلك الحب الغامر الذى يبدو لهم شاذا ، وقد ركزوا حملتهم بوجه خاص على الانباء المستفيضة بحب الرسول لفاطمة ، زاعمين ـ كما سنرى بعد فى الفصل الخاص بالزهراء ـ انها أنباء اخترعت بعد عهد الرسول بزمن ، عندما ظهرت فكرة التشيع !

ولا نتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل ، وانما حسبنا ـ مؤقتا ـ أن نقدر حين نذكر حب محمد لبناته الاربع ، اثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتى دخلن فى حياته قبل أن يغدو ابا : امه آمنة بنت وهب ، وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدها ، وفاطمة بنت اسد بن هاشم ، زوجة أبى طالب التى كانت له من بعد امه أما ، والتى سمع رسول الله يقول انه لم يجد أبر به منها بعد

ابى طالب ، وخديجة بنت خويلد ، زوجته الحبيبة التى آنسته مرارة يتمه وحرمانه ، وملأت دنياه حبا وحنانا وطمأنينة وسلاما

ثم لماذا لا نقول ان الله أراد ان يروض الرجل الذى سوف يصطفيه نبيا ، على احتمال ابوة الانوثة والصبر عليها ، كيما يعده للرسالة الخطيرة التى سوف يعهد اليه بتبليغها، ولكى يعلمه الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ، الأربع ، أثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتى دخلن فى المستضعفة التى تشبه القوارير !

الشقيقات الاربع

خرجن الى الدنيا فى أكرم منبت ، وأنبتتهن سلالةقرشية عريقة اصيلة ما يعرف العرب اعز منهاولا انقى، واستقبلهن البيت الكريم استقبالا لم تظفر بمثله لذاتهن ، فقد كن ثمرة زواج سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة، يرى فيهن الاب صورة لطيفة من زوجته الحبيبة التى انسته بحنانها الغامر كل ماذاق فى طفولته من يتم ، وكانت له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان

وتجد فيهن الام ، فلذات حية من رجلها العزيز الذى بهرها منذ عرفته بجلال طلعته ، واسرها بنبل شخصيته، وفتنها بجميل خصاله ، فتفتح له قلبها واقبلت على الحياة من جديد

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشظف العيش ، ولا اذبلها الحرمان

ودرجت حياتهن الاولى على ما نعرف من تقاليدالبيوت القرشية العريقة ، فالتمست لهن ـ واحدة بعد الاخرى ـ خير المراضع بعيدا عن حر مكة الخانق وقيظها المنهك ، حتى اذا أدركن سن الفطام عدن الى حضانة الام التى كانت لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت «محمدا» من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وتركت للزوج

الامين الاشراف على استثمار ثروتها الواسعة ، واقبلت هى بكل كيانها تشرف على دنياها الجديدة ، غير ملقية بالاالى ما وراء جدران بيتها السعيد

واكسبتها تجربتها السابقة فى الامومة ، خبرة بحضانة الصغار ودراية بتربيتهم، فأسرعت فتياتها الى التمويفضل ما تهيأ لهن من رعاية مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب ، واذا كانت ثروة الاسرة قدأتاحت لها استخدام من تشاء من الجوارى والغلمان ، فالحق أن عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شئون الخدمة الى حضانة الاطفال ، اذ حرصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها تلك المهمة العظيمة ، كيما تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن، ومافى مكة من تدانيهن شرفا ونعمة

حتى اذا شبت كبراهن « زينب » عن الطوق ، بادرت امها بتمرينها على المشاركة فى العبء الباهظ الجليل ، واخذتها مبكرة مأخذ الجد ، ونأت بها عما يشغل لداتها واترابها من عبث الطفولة ولهوها ، فكانت « زينب » لشقيقتها الصغرى « فاطمة » اما صغيرة ، ترعى شئونها وتمضى فراغها فى ملاعبتها ، كيما تعفى امها من بعض مشاغلها وقد علت بها السن وجاوزت الخمسين من عمرها

وقرب هذا الوضع مابين زينب وفاطمة ، كما اوجد تقارب السن الفة خاصة بين الاختين رقية وام كلثوم ، فكانتا رفيقتين متلازمتين ، يجمعهما اللعب المشترك والفراش الواحد ، والطباع المتشابهة ، والسمت المتماثل ، حتى لكانهما توامان !

وصارت حياة الشقيقات هكذا رخية هانئة حتى تزوجت كبراهن زينب، فافتقدتها اخواتها وشعرن بالوحشة لغيابها ؛ ولبثن ليالى عديدات ينظرن الى فراشها الخالى فيخامرهن احساس مبهم يختلط فيه الفرح بالاسى ، ودار سمرهن طوال هاتيك الليالى ؛ حول الزواج ، وقد اعياهن ان يدركن كنه هذا النظام الذى ينتزع الفتاة من أحضان اسرتها، ويلقى بها وحيدة الى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب !

وكانت صغراهن فاطمة ، بحكم طفولتها ، أجهلهن لحكمة الزواج واشدهن سخطا عليه ، فما أرضاها قط ان يبعدوا عنها « امها الصغيرة » التى طالما لاعبتها ودللتها واعتنت بها ، وانها لتسائل اختيها كيف هان على الاسرة أن تستقبل حادثا كهذا ، بالفرح المعلن ، وتحتفل به فى بهجة وسخاء ، وكان اولى بها أن تتمسك بزينب أو لا فلتودعها كارهة ، بغير احتفال

وتحاول رقية ــ متأثرة بشعورها ان الدور عليها ــ ان تهون الامر على اختها الصغرى فاطمة ، وأن تقنعها أن ابويها ما كانا ليسلما « زينب » الى زوجها فى احتفال بهيج كالذى كان، لولا ثقتهما أن فى هذا خيرها وسعادتها

لكن فاطمة تصر على رايها فى الزواج ، حتى يبدو لام كلثوم ان تدلى برايها فتقول لاختيها :

ــ من يدرى ؟ لعل هذا الفرح مفتعل ، ولعل ضجة العرس انما قصد بها شغل العروس عن التفكير فى قسوة التجربة الجديدة التى تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها ومرتع صباها

واذ تحس من أختها « فاطمة » بوادر الاقتناع ، تمضى

مزهوة برأيها ، فتلفت نظر أختيها الى ما بدا على أمهما بعد فراق زينب من شجو تحاول أن تكظمه ، فتفلت منها بوادر واشية به دالة عليه

ثم تسألهما :

ـ أما سمعتماها غير مرة تنادى « رقية » باسم «زينب» ثم تنتبه فجأة ، فتستدرك بصوت رقيق حالم : ويحى ! لقد نسيت أن زينب لم تعد هنا !

فتردد فاطمة فى أسى :

ـ هو ما تقولين

أما رقية فتجيب :

ـ انك تبالغين يا أم كلثوم ، فالواقع أن أمنا قد ألفت أن تنطق باسم زينب ، وليس فى سبق لسانها بهذا الاسم ما يستغرب ، وانما هو حكم الالف وسلطان العادة

ولكن « أم كلثوم » تستطرد قائلة دفاعا عن وجهة نظرها :

ـ فما قولك اذن فى أبينا ؟ أو ما تلاحظين عليه منذ حين انه يأنس الى الخلوة ويميل الى الوحدة ويجنح الى الصمت والتأمل ؟ أو ما يبدو عليه فى هذه الايام انه مشغول البال بهم يطويه ؟

فهتفت « فاطمة » وهى تنتفض حبا وحنانا :

ـ يا لابى العزيز ! انه لكما ذكرت يا أم كلثوم

وقالت رقية :

ـ وما يدريكما أن لفراق « زينب » صلة بميل أبينا الى العزلة ، وشغفه بالخلوة ؟

فهزت « أم كلثوم » راسها وهى تقول بلهجة ذات مغزى:

ـ ما اراك يارقية الا تعدين نفسك لمثل مصير زينب ، وقد جاء دورك !

فردت « رقية » فى غير انفعال :

ـ ماخطر لى هذا يا اخت ببال

وعقبت فاطمة :

ـ فلتتزوجا انتما وليبارك الله لكما ، أما انا فلست بتاركة ابوى ما استطعت الى ذلك سبيلا

ولم تدر « فاطمة » وهى تلقى هذه العبارة أنها كانت تنطق بلسان القدر !

فما مضى على زواج « زينب » غير قليل ، حتى خطبت اختاها رقية وأم كلثوم ، وبقيت هى فى بيت ابيهـــا ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا

▭

الى هنا ينتهى الفصل الاول من حياة الشقيقات الاربع، بانتهاء حياتهن المشتركة فى بيت ابويهن ، ويبدأ فصل آخر نرى فيه كل واحدة منهن وقد واجهت دنياها الجـــديدة واستقلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول أن نتبع كلا منهـن على حدة ، لنصحبها فى ذلك الدور الثانى من حياتها ، ونرى مافعلت بها الايام ...